قاعدة الإسلام في المدينة

للأستاذ/ محمد جمال الدين محفوظ

« ينبغي في أية مرحلة من مراحل تاريخ المسلمين ، أن يذكر الكتاب والمحللون والمؤرخون ، أن قاعدة الاسلام في المدينة في عصر النبوة ، هي حجر الأساس في بناء تاريخ الاسلام المجيد » .

في تاريخ الأمم لحظات حاسمة ، أعظمها وأخطرها تلك اللحظات التي تتعلق بالمستقبل والمصير ..

والأمم الحية هي التي تستطيع في مثل تلك اللحظات أن تدرك حجم الخطر المحدق بها ، وتقف في مواجهته حاشدة كل قواها المادية والمعنوية حتى تقضي عليه .. ولا مراء في أن حلول القرن الخامس عشر في عصر الصراع والأطماع ، والاستعمار واستغلال الأمم الضعيفة ، هو لحظة حاسمة في تاريخ الأمة الاسلامية تتعلق بمستقبلها ومصيرها ، وأنه ينبغي عليها أن تتخذ من تلك اللحظة منطلقا لابراز كل مالديها من الملكات الانسانية والذخائر المادية والحضارية لكي تستطيع أن تهزم الخطر الذي يتهددها ، وأن تخطو الى عزتها وتشق طريقها بين الأشواك الى نهضة حضارية شاملة ، تعيدها الى سابق عهدها ، أمة قوية مرهوبة الجانب ، ورائدة للحضارة الانسانية ، وتبوئها مكانتها اللائقة بها بين الأمم .

ولعل أهم ما ينبغي على الأمة الاسلامية عمله في تلك اللحظة الحاسمة ، هو أن تستوعب دروس التاريخ ، وتسترشد بها ، وتنتفع بتجاربها ، يقول الله تعالى : « فاعتبروا ياأولي الأبصار » (الحشر ـ ٢) ٠

فلقد كانت الأمة الاسلامية فيما مضى ، متمسكة بكتاب الله ، عاملة بسنة نبيها صلى الله عليه وسلم ، صحيحة في عقائدها ، صالحة في أعمالها ، حسنة في معاملاتها وعاداتها ، كريمة في أخلاقها ، بصيرة في دينها ودنياها ، راقية في آدابها ، مجاهدة بالأموال والأنفس في سبيل الله ، قادرة على الدفاع عن دينها وارضها ، فكانت عزيزة الجانب ، قوية الشوكة ، جليلة مهيبة ، صاحبة السلطان والصولة على من عداها ٠

ويوم أهمل المسلمون دينهم ، وتخلوا عن الجهاد ، واقبلوا على الدنيا ، وغفلوا عن الخطر المحدق بهم ، ضاع وجودهم وكيانهم ، فتمكن العدو منهم ، وتسلط عليهم من لا يخافهم ولا يرحمهم ، وقامت ضدهم حرب حضارية في كل الميادين ٠

وليس هناك طريق آخر غير الذي أضاءه الله للمؤمنين ليسلكوه ، ودلهم عليه ليأمنوا الوقوع في الأخطار والمهالك : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » (آل عمران ـ ١٠٣) أي أنه ليس أمام المسلمين اليوم الا العودة الى طريق الدين ، والا أن يفجروا طاقة عقيدتهم الاسلامية ذات العروة الوثقى بالله ، لكي يقيموا نهضتهم الحضارية المرجوة ٠

ومن المفيد في هذا المجال أن يتأمل المسلمون قاعدة الاسلام في المدينة والأسس الاستراتيجية التي قامت عليها ، فهي كانت تجسيدا لتعاليم الاسلام في توجيه حياة الأمة ، وتنظيم أركان الدولة في مختلف الميادين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية ٠٠

فقد استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم ، في عشر سنوات بعد الهجرة ، أن ينشيء أمة ، ويقيم دينا ، ويضع تشريعا ، ويربي جيلا ، ويبني جيشا ، ويؤسس حضارة اسلامية ازدهرت قرونا عديدة ٠ ويكفيه فضلا من الله عليه وعلى أمته ، أننا لا نجد نبيا من الأنبياء ، ترك أمته على مثل الحال التي ترك محمد صلى الله عليه وسلم أمته عليها ، فلم يلق صلوات الله وسلامه عليه ربه ، حتى استقرت أمته بشعبها الممتاز ، حكمها العادل ، وتشريعاتها الكاملة وجيشها العظيم المنتصر ، وجزيرتها العربية الخالصة لها ٠

وسوف تتناول فيما يلي بعض الأسس الاستراتيجية التي قامت عليها قاعدة الاسلام في المدينة ..

الأساس الأول ــ بناء الانسان والمجتمع :

رسم الاسلام الطريق لبناء الفرد وبناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره وسلوكه ، حتى يكون انسانا صحيح الجسم والعقل والنفس ، وليجعل منه لبنة قوية متماسكة ، وعنصرا ايجابيا صالحا في مجتمعه الكبير ، ومقاتلا شجاعا لا يقهر في الحرب دفاعا عن دينه وشرفه ووطنه ، كما رسم الاسلام الطريق لبناء المجتمع الانساني الفاضل الذي يتجاوب مع الانسان المطلوب بناؤه ، ويهيء له المناخ الصالح للتنشئة السليمة والتربية القويمة ، كما يهيء له الفرص التي تتيح له اظهار طاقاته المدخرة فيه . ولا يتسع المقام لعرض منهج الاسلام في بناء الانسان والمجتمع ، وانما نكتفي بعرض بعض الأمثلة :

بناء الشخصية الاسلامية :

ان جوهر الشخصية الاسلامية هو اسلام الوجه لله ، ويكون ذلك في العقيدة بالايمان بوحدانية الله ، وفي الأخلاق بأن يتخلق الانسان بالأخلاق التي أمر الله بها :

١ ــ معالم التوحيد في العقيدة :

فالتوحيد هو مبدأ الاسلام وجوهره كما يعرضه القرآن في قوله آمرا رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم : « قل انما يوحى الي أنما الهكم اله واحد فهل أنتم مسلمون » (الأنبياء ــ ١٠٨) ، « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (آل عمران ٦٤) .

ويبين الله سبحانه جوهر التدين في قوله تعالى : « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن » (النساء ــ ١٢٥) .

وقد فسر الله جل شانه معنى اسلام الوجه لله حينما وضع ذروته ممثلة في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم اذ يقول : « قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وانا أول المسلمين » (الأنعام ــ ١٦٢ ، ١٦٣) .

ومن أجل ايجاد الانسان الموحد في صورة واقعية كانت أركان الاسلام :

- أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله .
- والصلاة ، انما هي انفصال عن كل ما سوى الله من أجل الاتصال بالله فهي توحيد ، ومن هنا كان بدؤها « الله اكبر » لتشعر الانسان من المبدأ بأن جميع ما في العالم من مادة ومن بشر يتعلق بهم الآمال ، أو يناط بهم الرجاء فان الله اكبر منهم وأجل وأعظم ، فيجب أن تتعلق الآمال به وحده ، وأن يقتصر الرجاء عليه سبحانه .
- والصوم ، هو تنزه عن المادة وعن السوء في القول والعمل من أجل مرضاة الله ، انه تنزه عن النقص البشري الذي يتمثل في شهوات المعدة لتخلص الروح فترة الى التأمل في كمال الله .
- والزكاة ، انما هي بذل المادة في سبيل الله ، وتجرد عنها توحيد الله سبحانه .
- أما الحج ، فانه تجريد كله ، انه تجرد روحي عن الماضي ، فهو في مبدئه توبة عن الذنوب والآثام ، وهو تلبية من اول لحظاته ، تلبية هي استجابة لله وحده ، أو هي توحيد خالص ، واستجابة كاملة للأمر بنفي الشريك : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » .

٢ ــ معالم التوحيد في الأخلاق :

ومعالم التوحيد في الأخلاق أن لا يصدر الانسان في سلوكه الشخصي أو في سلوكه الاجتماعي الا عن توجيه الهي ، وأن يتخلق بالأخلاق التي امر الله بها ، وأن يكون في كل ما يأتي وما يدع قاصدا وجه الله تعالى ، وأن تكون صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين لا شريك له .

تحرير الشخصية الاسلامية :

ويترتب على التوحيد : تحرير الشخصية الاسلامية من رق العبودية لغير الله في مختلف الوانه واشكاله :

ـ التحرر من خوف الموت :

فالانسانية في مختلف أزمنتها وأمكنتها تخاف الموت ، وهذا يقودها الى الاستعباد للأقوياء والذلة أمام الطغاة ، لكن هذا الوضع لا يتمشى مع عقيدة التوحيد ، فان مالك الملك انما هو وحده الذي يملك الموت والحياة ، وهو الذي قدر الآجال وحددها ، والحرص على الحياة أو الجبن ليس من أسباب اطالة الأجل ، كما أن الشجاعة والاقدام ليسا من أسباب تقصير الأجل .

« كل نفس ذائقة الموت » (آل عمران ـ ١٨٥) ـ « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » (النساء ـ ٧٨) « ولكل أمة أجل فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » (الأعراف) ـ ٣٤) فالمؤمن الصادق الايمان لا يعرف الجبن ، ولا يستزله الشيطان موسوسا له بالخوف من غير الله تعالى ، ومن أعظم مايروى في هذا المقام أنه في غزوة أحد وبعد أن أحاط المشركون بالمسلمين من كل جانب بعد هزيمتهم ، التف حول الرسول صلى الله عليه وسلم نفر قليل من المسلمين يدافعون عنه ، وفي ذلك الموقف العصيب بايع الرسول على الموت ثمانية (١) من المسلمين ووقفوا يفدونه بأنفسهم ويقاتلون دونه ، ويتلقون السهام والطعنات والرماح والسيوف بأجسادهم . ومع ذلك فلم يستطع المشركون أن يقتلوا منهم واحدا .

وعاشوا جميعا « وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا » (آل عمران ـ ١٤٥) .

ـ التحرر من هم الرزق :

وقد حرر الاسلام المجتمع الاسلامي أيضا من هم الرزق وهو كالموت من أسباب ذلة الانسان الذي تستعبده المادة والحصول عليها . قال تعالى : « ما من دابة في الأرض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها » (هود ـ ٦) « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم » (فاطر ـ ٢) .

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أن الرزق في السماء محدد مقسوم ، واقسم سبحانه على أن ذلك حق واقع ، لقد اقسم جل شانه لما يعلمه من ضعف الطبيعة البشرية وقلقها بالنسبة لأمر الرزق ، يقول سبحانه : « وفي السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون » (الذاريات ـ ٢٢ ، ٢٣) (٢) .

وفي الحديث الشريف يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة الى قصعتها ، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن · فقال قائل : أو من قلة نحن يارسول الله يومئذ ؟ ·· قال : لا · انكم حينئذ لكثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ·· فقال قائل : وما الوهن يارسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهة الموت » ·

المجتمع الاسلامي :

أما عن بناء المجتمع فاننا نعرض بعض ملامحه فيما يلي :

ـ قاموا بواجبهم نحو ربهم ومجتمعهم :

قال تعالى : « ان المتقين في جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين · كانوا قليلا من الليل ما يهجعون · وبالأسحار هم يستغفرون · وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » (الذاريات ١٥ ـ ١٩) ونجد القرآن الكريم يجمع كل زينة في الحياة الدنيا ويضعها في جانب ، ويضع في الجانب لآخر حب الله الذي يتمثل فيه الخير والحق ، وحب الجهاد في سبيل الله ، وفي سبيل تحقيق الكفاية للمجتمع والعدل بين الناس · ثم يجعل حب الله والجهاد راجحا لهذه الزينات جميعا قال الله تعالى : « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين » (التوبة ـ ٢٤) ·

ـ جمعتهم رحمة الأخوة وسماحة التآلف وكرم الايثار :

١ ـ قال تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » (٣) (الفتح ـ ٢٩) ·

٢ ـ وقال تعالى : « والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على

أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » (الحشر ـ ٩) .

أخرج ابن المنذر عن يزيد الأصم أن الأنصار قالوا يا رسول الله أقسم بيننا وبين اخواننا المهاجرين الأرض نصفين . قال : لا ولكن تكفونهم المؤونة وتقاسمونهم الثمرة والأرض أرضكم . قالوا : رضينا . فانزل الله تعالى : « والذين تبوءوا الدار .. » الآية (٤) .

٣ ـ وقال تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواننا وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » (آل عمران ـ ١٠٣) .

وقال تعالى : « وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم أنه عزيز حكيم » (الأنفال ـ ٦٣) قال القرطبي : أي جمع بين قلوب الأوس والخزرج لأن أحدهم كان يلطم اللطمة (بالبناء للمجهول) فيقاتل عنها حتى يستقيدها . وكانوا أشد خلق الله حمية فألف الله بالايمان بين قلوبهم .

ـ باعوا الله أنفسهم وأموالهم صادقين مطمئنين لقاء ما أعطاهم من جنته ومغفرته ورضوانه :

١ ـ قال تعالى : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين ان شاء أو يتوب عليهم ان الله كان غفورا رحيما » (الأحزاب ٢٣ ـ ٢٤) .

أخرج مسلم والترمذي وغيرهما عن أنس رضي الله عنه قال : غاب عمي أنس ابن النضر عن بدر ، فكبر عليه فقال : أول مشهد قد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه ، لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أصنع ، فشهد يوم أحد ، فقاتل حتى قتل ، فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية . ونزلت هذه الآية « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » الى آخرها (٥) .

٢ ـ وقال تعالى : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة

والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » (التوبة ـ ١١١) ٠

وقال جل شأنه : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد » (البقرة ـ ٢٠٧) ٠٠ أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد ابن المسيب رضي الله عنه قال : أقبل صهيب رضي الله عنه مهاجرا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعه نفر من قريش فنزل عن راحلته ، وانتثل ما في كنانته (أي أخرج السهام من جعبتها) ثم قال : يامعشر قريش ٠٠ لقد علمتم أني من أرماكم رجلا ، وايم الله لا تصلون الي حتى أرمي كل سهم معي في كنانتي ، ثم أضرب بسيفي ما بقى في يدي منه شيء ٠ ثم افعلوا ما شئتم ٠٠ وان شئتم دللتكم على مالي بمكة وخليتم سبيلي ٠ قالوا نعم ٠٠ فلما قدم المدينة على النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ربح البيع أبا يحيى (مرتين) » (يعني صهيبا) ونزلت الآية الكريمة ٠٠ « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ٠٠ الآية » (٦) ٠

٣ ـ وقال تعالى : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم » (التوبة ـ ٩١) ٠ أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : امر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءت عصابة من أصحابه (أي جماعة) فيهم عبد الله بن معقل المزني رضي الله عنه ، فقال : يارسول الله أحملنا ٠٠ فقال : « والله لا أجد ما أحملكم عليه » فولوا ولهم بكاء ، وعز عليهم أن يحبسوا ولا يجدون نفقة ولا محملا ، فأنزل الله عز وجل « ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم ٠٠ الآية » (٦) ٠

ـ ملك حب الله قلوبهم فاحبوا من أحبه وعادوا من عاداه ولو كان أقرب الناس اليهم :

قال تعالى : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون » (المجادلة ٢٢) ٠

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال : نزلت هذه الآية في أبي عبيدة ابن الجراح حين قتل أباه يوم بدر « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ٠٠ الآية » وأخرجه الطبراني والحاكم في المستدرك بلفظه جعل والد أبي عبيدة ابن الجراح يتصدى لأبي عبيدة يوم بدر وجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثر ، قصده أبو عبيدة فقتله ، فأنزلت ٠٠٠ الآية (٦) ٠

قال سعيد بن عبد العزيز : أنزلت هذه الآية « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ٠٠ الآية » نزلت في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر : « ولو كانوا آباءهم » وفي الصديق هم بقتل ابنه عبد الرحمن يوم بدر : « أو أبناءهم » وفي مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ : « أو اخوانهم » وفي عمر قتل قريبا له يومئذ ٠ وفي حمزة وعلي وعبيدة ابن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ : « أو عشيرتهم » (٧)

– حرصوا على ابراز الشخصية المستقلة لمجتمع المسلمين :

كان أهل المدينة حين دخلها الاسلام يحتفلون بعيدين من أعياد الطبيعة فمنع الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين من الاستمرار في الاحتفال بهذين العيدين وقال لهم : « ان الله – تبارك وتعالى – قد أبدلكم بهما خيرا منهما : يوم الفطر ويوم النحر » ثم وضع للمسلمين قاعدة اجتماعية كلية وتحذيرا عاما لهم من التشبه بغيرهم والذوبان فيهم فقال : « من تشبه بقوم فهو منهم » واذا تتبعنا خطوات الرسول – صلى الله عليه وسلم وهو يكون أول مجتمع اسلامي في المدينة نجده يحرص كل الحرص على ابراز الشخصية المستقلة للمسلمين ، ولم يتركهم يذوبون في المحيط المشرك او اليهودي الذي يعيشون معه ، فكان يتبع خطوات المسلمين وتصرفاتهم بالتعديل وينقلهم شيئا فشيئا الى معالم الشخصية الجديدة للمجتمع الاسلامي الجديد ، ويخلصهم من آثار الجاهلية أو اليهودية ، سواء كان ذلك في العبادة أو مظاهر الحياة الأخرى ، ومن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم قال : « نظفوا أفنيتكم ولاتشبهوا باليهود » ٠

ولم يكن ذلك منه عليه الصلاة والسلام تعنتا أو أنانية ، ولكن لأنه يعلم أن التشبه بالغير في بعض مظاهره ، قد يجر المسلم الى محاكاته في أفعاله وأفكاره ، فيصبح صورة مكررة له ، ويهمل حينئذ مظاهره وآدابه وافكاره وتقاليده الخاصة به ، ويفقد بذلك معالم شخصيته المميزة له (كما نرى ذلك حولنا الآن في بعض المجتمعات الاسلامية التي تعيش عيشة بعيدة عن الاسلام

وتقاليده ولغته وآدابه) ويصبح المسلم حينئذ انسانا تافه الشخصية ، لا وزن له في المجتمع المسلم ولا تقدير ، ولا يحترمه حتى الذين يقلدهم ويفنى فيهم ·

الأساس الثاني : البناء السياسي وتأصيل قاعدة الشورى

كان مبدأ الشورى هو دعامة البناء السياسي لمجتمع المدينة ، والنظام المطبق لحصانة الفرد وصلابة المجتمع ، فليس هناك بين يدي الله فرق بين الراعي والرعية ، ولا بين الكبير والصغير الا بدعوة العقيدة والايمان بها ايمانا لا يرقى اليه الشك ، والعمل الصالح · فالمسلمون أمة واحدة يشد بعضهم أزر بعض فيما يعود عليهم بالخير ، ولكل منهم رأيه في سياسة أمره وفيما يساس به ، فليس من الاسلام الاستئثار بالرأي ، ولكنه شورى بين جميع العاملين ·

ولقد أقر الاسلام ما كان عليه أهل المدينة من التشاور فيما بينهم ، فمدح هذا السبيل ، ونادى بالشورى ورفع من شأنها · قال تعالى : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون » (الشورى ـ ٣٨) فقرن الله بين الصلاة والشورى ، وجعلها بذلك أصلا قويا من أصول قيام المجتمع المسلم في الاسلام ، وبتحقيقها وتدعيمها تتحقق العدالة في شتى صورها وألوانها بين الناس جميعا ، بل لقد أمر بها رسوله صلى الله عليه وسلم · قال سبحانه : « فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين » (آل عمران ـ ١٥٩) ·

ولم تكن الشورى وأمر الرسول بها ـ وهو الذي يتنزل عليه الوحي ـ الا تعليما للأمة واعلانا بأن في تحقيق مبدأ الشورى من الفضل والخير ما يؤمن معه العثار ، ويحفظ الأمة من الزلل ، كما أنها شيمة العقلاء ومنهج الحكماء ، ومن أجل ذلك تنطوي الشورى على عدة مبادىء هامة :

١ ـ الرأي أمانة :

قرر الاسلام أن ابداء الرأي أمانة ومسئولية ، وأن على من يستشار أن يقول رأيه بصدق واخلاص · وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

● « المستشار مؤتمن » (رواه ابن ماجة بسنده عن أبي هريرة) ·

- « اذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه » (رواه ابن ماجة بسنده عن أبي جابر) .

ويعتبر الاسلام الانحراف عن الصدق والاخلاص في ابداء الرأي من قول الزور الذي أمر الله باجتنابه وقرنه بعبادة الأوثان في قوله جل شأنه :

« فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » (الحج ــ ٣٠) كذلك يحذر الاسلام من الامتناع عن ابداء الراي ، ويعده من شهادة الزور كما في قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من كتم شهادة اذا دعي اليها كان كمن شهد الزور » .

٢ ــ في الشورى خير ومصلحة :

قال عليه الصلاة والسلام :

- « ماندم من استشار » .
- « ما شقي عبد بمشورة ، وما سعد باستغناء رأي » .

٣ ــ الأخذ بالمشورة الصالحة واجب :

ووجه الاسلام الى الأخذ بالمشورة الصالحة ، والنزول على الراي الصواب كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مثلا في غزوة بدر حين نزل على راي الحباب ومشورته ونقل الجيش الى موقع قريب من ماء بدر حيث أشار الحباب ، وينطوي قول النبي صلى الله عليه وسلم للحباب : « أشرت بالرأي » على مغزى رفيع فوق النزول على الرأي ، هو الاشادة بالراي الصواب وتكريم صاحبه ، وحفز همة الأفراد الى التفكير وابداء الراي والمشورة .. وروى الامام أحمد بسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر وعمر : « لو اجتمعتما في مشورة لما خالفتكما » .

٤ ــ تنفيذ الخطة واجب بعد المشورة :

ووجه الاسلام لذلك الى أن تنفيذ الخطة بعد المشورة واجب ، وانه متى استقر الرأي على أمر ما ، فلا محل للتردد أو الجدل لأن من شأن ذلك تعطيل التنفيذ والفشل في تحقيق الأهداف . وهذا التوجيه هو بعض ما يفهم من قوله تعالى : « فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين » (آل عمران ــ ١٥٩) .

وقد حدث في غزوة أحد ، بعد أن استقر الرأي على لقاء قريش خارج المدينة وأخذ المسلمون في الاستعداد للخروج أن شعر القوم الذين دعوا الى الخروج أنهم استكرهوا الرسول صلى الله عليه وسلم على اتخاذ القرار بالخروج ، فذهبوا الى بيته وأظهروا الرغبة في النزول على رأيه بالبقاء في المدينة ، الا أن النبي صلى الله عليه وسلم حسم الموقف وقطع هذا التردد والاضطراب فقال : « ما ينبغي لنبي اذا لبس لأمته (أي درعه) أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه ، انظروا ما آمركم به فاتبعوه ، والنصر لكم ماصبرتم » .

٥ ــ استشارة أهل الرأي :

ان القيادة الحكيمة هي التي تستفيد من خبرة العلماء والمتخصصين والخبراء وغيرهم من « أهل الرأي » الذين يصدر رأيهم عن سعة في المعرفة وعمق في التجربة والخبرة . وقد روى ابن مردويه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سئل صلى الله عليه وسلم عن العزم . فقال : « شاور أهل الرأي » .

الأساس الثالث : استراتيجية عسكرية اسلامية

قامت في المدينة مدرسة عسكرية كاملة انبثقت مبادئها ونظرياتها وتعاليمها من القرآن الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والقولية والعملية والتقريرية . وفي هذه المدرسة تعلم اجدادنا المسلمون الأوائل من قادة وجنود وجيش الاسلام الأول وطبقوا تعاليمها عمليا في ميادين القتال دفاعا عن الدين والأمة فكانوا مضرب الأمثال في القيادة والشجاعة والعبقرية العربية ، واثبتت نظريات تلك المدرسة عمليا صحتها وكمالها (٨) ، وتاريخ معارك الاسلام في عصر النبوة وحده ، يشهد للمسلمين بقدرتهم وكفايتهم العالية في القيام بجميع أشكال العمليات الحربية مثل الدفاع والهجوم والمطاردة والتخلص من المعركة ومسير الاقتراب والاغارات وأعمال الاستطلاع والمخابرات والحرب النفسية ودوريات القتال والهجوم على القرى والمواقع الحصينة وأعمال الحصار .. الخ وقيام المسلمين بهذه العمليات المتنوعة دليل على كفاية اعدادهم وتدريبهم عليها . يقول كلاوزفتز : (يمكن للقوات العسكرية المدربة جيدا أن تقوم بجميع الأعمال العسكرية) .

وقد قامت الاستراتيجية العسكرية على الأركان الرئيسية التالية : ـ

١ ـ عقيدة الجهاد في سبيل الله

ان جوهر العقيدة العسكرية (٩) الاسلامية هو الجهاد في سبيل الله ، نجد ذلك في القرآن الكريم والسنة النبوية كما يلي :

قال تعالى :

- « وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم » (الحج ـ ٧٨) .
- « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » (التوبة ـ ١١١) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم :

- « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم والسنتكم » .
- « الجهاد ماض الى يوم القيامة » .
- « سئل الرسول أي الناس أفضل ؟ فقال : مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله » .

هدف الجهاد :

وتتميز عقيدة الجهاد بوضوح الهدف وهو « سبيل الله » و « اعلاء كلمة الله » ، وهو هدف يسع كل القيم الانسانية السامية كالدفاع عن الوطن وعن العرض والكرامة والحق والعدل والسلام . أما العدوان والاغتصاب فليست من أهداف الجهاد الاسلامي . يقول الله تعالى :

- « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (البقرة ـ ١٩٠) .
- « يأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين » (البقرة ـ ٢٠٨) .
- « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم » (الأنفال ـ ٦١) .

٢ ـ نظرية الردع :

والركن الثاني للاستراتيجية العسكرية الاسلامية هو أن تكون القوة الاسلامية من الكفاية والتفوق بحيث ترهب الأعداء وتخيفهم من عاقبة عدوانهم · يقول الله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلموهم الله يعلمهم » (الأنفال ـ ٦٠) · ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أعطيت خمسا ، لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس كافة ، وأعطيت الشفاعة » (متفق عليه) ·

ويستخلص من ذلك أن النظرية الاستراتيجية للحرب في الاسلام هي « الردع » (١٠) من خلال أعداد « القوة الرادعة » ·

وهذا ما يفهم من لفظ « ترهبون » من الآية الكريمة من سورة الأنفال ، أي أن الهدف من اعداد القوة والمرابطة ، ارهاب الأعداء واخافتهم من عاقبة عدوانهم · ويفهم أيضا من قول النبي صلى الله عليه وسلم : « نصرت بالرعب مسيرة شهر » أن أعداءه كانوا يرهبونه ويخافونه مع بعدهم عنه بحيث لو أراد حربهم لقطع المسافة التي هي بينه وبينهم في شهر بسير الابل ، كما يفهم أيضا أن اظهار القوة للأعداء واخافتهم يحقق النصر عليهم ويؤدي الى تحقيق الأهداف أكثر من أية وسيلة أخرى من وسائل مواجهة الأعداء ·

وتدل احصائيات معارك عصر النبوة على تطبيق نظرية الردع عمليا : فمن بين ثمان وعشرين غزوة قادها النبي صلى الله عليه وسلم ضد المشركين واليهود ، نشب القتال في تسع منها فقط هي (بدر ـ أحد ـ الخندق ـ بني قريظة ـ بني المصطلق ـ خيبر ـ فتح مكة ـ حنين ـ الطائف) بينما فر الأعداء في تسع عشرة غزوة منها بدون قتال ·

ولعل من أبرز ما تتميز به نظرية الردع الاسلامية هو أنها غير عدوانية ، فامتلاك الأمة الاسلامية للقوة المتفوقة على عدوها ، لا يغريها بالعدوان مادام العدو ممتنعا عن العدوان ، أي أن الأمة الاسلامية لا تتعدى حدود الردع مادام يحقق هدفه وهو اخافة العدو ومنعه من الاعتداء ، لأن العدوان ليس من غايات الحرب في الاسلام ، ولأن الحرب الاسلامية حرب

عادلة ومشروعة لا تحكمها أو تدفع اليها الأهواء أو المطامع أو المصالح · وتعد غزوة مكة خير دليل على نبل مقاصد نظرية الردع الاسلامية وماتنطوي عليه من نوايا سلمية ، فلقد كانت أمام الرسول القائد صلى الله عليه وسلم فرصة سانحة لتوجيه ضربة عسكرية ساحقة لقريش ، لكنه وضع خطته العبقرية على أساس اظهار القوة واحداث تأثيرها النفسي في قلب أبي سفيان لتجريده وقومه من ارادة المقاومة والقتال ، وقد تجسد هذا التأثير بأجلى معانيه حين هرع أبو سفيان الى قومه قائلا : يامعشر قريش ·· هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ··

٣ ـ اعداد القوة الشاملة :

لقد ورد لفظ القوة في التوحيد القرآني « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » مطلقا بغير تحديد ، وهو بذلك يتسع ليشمل كل عناصر القوة المادية والمعنوية ، كالقوة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية والنفسية بالاضافة الى القوة الحربية ·

ولما كان اعداد القوة الشاملة يستهدف ارهاب العدو واخافته كما يفهم من نص الآية « ترهبون به عدو الله وعدوكم » ، فان مقتضى ذلك أن تكون هذه القوة متفوقة على قوة الأعداء حتى تحقق « الردع » ، وأن تكون لهذا التفوق صفة الاستمرار والدوام لأن التكليف القرآني باعداد القوة تكليف قائم وباق الى قيام الساعة ، ويتطلب ذلك أن تتطور القوة الاسلامية وتتقدم مع تطور كل عصر وتقدمه بحيث لا تتخلف عنه أبدا والا فقدت فعاليتها وقدرتها على الردع ·

٤ ـ التاهب والاستعداد القتالي :

عنى الاسلام أشد العناية باتخاذ الحيطة والحذر لحرمان العدو من المفاجأة ووقاية المسلمين من آثارها المدمرة · يقول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم » (النساء ـ ٧١) ويقول أيضا : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا » (المائدة ـ ٩٢) ·

ولعل أبلغ ما يؤكد اهتمام الاسلام بالحذر ما جاء في القرآن بشأن الصلاة في الحرب : « واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وامتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » (النساء ـ ١٠٢) ·

وهكذا أمر بأن تصلي طائفة مع الرسول وأسلحتها معها ، وجعل الطائفة الأخرى للحراسة حتى اذا فرغت الطائفة الأولى اتخذ كل من الفريقين حالة الآخر .

نستخلص مما تقدم مايلي :

- أن الاسلام يعد الحذر أمرا بالغ الحيوية لمصلحة الاسلام والمسلمين ، ولا يرضى بالتواكل أبدا وهل هناك ماهو أدل على ذلك من أنه يأمر المسلمين بالحذر والحيطة والاستعداد في الصلاة التي يؤدونها لله ويكونون فيها بين يديه ؟ .

- أن الاسلام يفتح عيون المسلمين عن الخطر المحدق بهم من أعدائهم المتربصين الذين ينتظرون لحظة الغفلة منهم « ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وامتعتكم .. » ، كما يجسد عواقب تلك الغفلة والأضرار البالغة التي يتعرض لها المسلمون بسببها « فيميلون عليكم ميلة واحدة » .

- أن الاسلام يحذر من الاغترار بالقوة ، فهي كالاستهانة بالعدو تؤدي الى اهمال الحذر ، ولقد كان ماحدث للمسلمين في غزوة حنين من هزيمة بسبب اغترارهم بقوتهم حين قال قائلهم « لن نغلب اليوم من قلة » .

القوة والمرابطة :

وللمرابطة وزن كبير وشأن خطير في تقدير الاسلام .. ففي الآية الكريمة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » ، خص الله تعالى (رباط الخيل) بالذكر ، مع أنها داخلة فيما قبلها (من قوة) ، وهذا دليل على أهمية المرابطة من جهة ، وتاكيد لما بينها وبين القوة من ارتباط وثيق بحيث لا تستغنى احداهما عن الأخرى من جهة أخرى :

- **فالقوة :** في حاجة الى المرابطة لتحميها باليقظة والحراسة والانذار المبكر ، وهي بدون ذلك تفقد فاعليتها وقيمتها اذا تمكن العدو من تحقيق المباغتة .

- **والمرابطة :** في حاجة الى القوة التي تحمي ظهرها وتساندها وتدعمها . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الرباط :

– « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وماعليها » (أخرجه الشيخان)

– « عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله » (رواه الترمذي) ·

– « من رابط ليلة حارسا من وراء المسلمين ، كان له مثل أجر من خلفه ممن صام وصلى » (رواه الطبراني عن أنس بن مالك) ·

درجة الاستعداد القصوى :

ويقرر الاسلام الطريق العملي الذي يحرم العدو من مباغتة المسلمين ، وهو أن تكون لدى المسلمين قوات متأهبة على أقصى درجات التأهب والاستعداد للحركة والانطلاق نحو الخطر بمجرد الاشارة · وذلك مايفهم من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله ، كلما سمع هيعة (أي صيحة خطر) طار اليها » وفي رواية أخرى : « من خير معايش الناس لهم رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه (أي ظهره) كلما سمع هيعة أو فزعة (أي الخوف) طار عليه يبتغي القتل أو الموت » ·

ويدل الحديث على معنى الاستعداد الكامل والمستمر للانطلاق بمجرد الاشارة ، فالفارس « الممسك بعنان فرسه » لن يكون بحاجة اذا رأى خطرا أو جاءته الاشارة ، الى الاتيان بأي تصرف ولا حتى مد يديه الى عنان فرسه ليمسك بها لأنه ممسك بها فعلا ، أي أن كل ماسوف يفعله هو الانطلاق الذي اختار له الحديث لفظة (طار) وهي أسرع أشكال الحركة على الاطلاق (١١) ·

ولقد قدم الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بنفسه مثلا على درجة الاستعداد القصوى : عن أنس رضي الله عنه قال : « كان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس ، لقد فزع أهل المدينة ليلة ، فانطلق ناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا قد سبقهم الى الصوت ، واستبرأ الخبر ، على فرس لأبي طلحة عرى ، والسيف في عنقه وهو يقول : لن تراعوا » (رواه الشيخان) ·

٥ – التطوير وملاحقة العصر :

يقول ابن سعد في طبقاته (١٢) عن وفد ثقيف عندما جاءوا مسلمين : « لم يحضر عروة بن مسعود ولا غيلان بن سلمة حصار الطائف · كانا

ولقد حافظ المسلمون على تطبيق قاعدة التطوير في المجال الحربي حتى شهد لهم الامبراطور البيزنطي (ليو) – رغم ماعرف عنه من تعصب ضد العرب والمسلمين – فقد نقل عنه فون كريمر في كتابه (الشرق تحت حكم الخلفاء) أنه قال : « ان الجندي العربي ، ما كان يفترق عن الجندي البيزنطي في المؤن والسلاح » . ثم ان ما سجله التاريخ بعد ذلك من انتصار الجيوش الاسلامية على جيوش فارس وبيزنطة يعد انتصارا للاستراتيجية العسكرية الاسلامية على استراتيجية كلا الدولتين العظميين ، لأن الحرب – كما هو معروف – هي المحك وهي مجال الاختبار الحقيقي للاستراتيجية العسكرية وللكفاية الحربية . فان دل ذلك على شيء فهو يدل على أن الاستراتيجية الاسلامية لم تكن على مستوى عصرها فحسب بل انها تميزت على الاستراتيجيات المعاصرة في كثير من النواحي .

الأساس الرابع : البناء الاقتصادي

لقد سبقت حكمة الله جل شأنه أن يكون اقتصاد الأمة الاسلامية وثيق الصلة بالقوة التي أمرها باعدادها لترهب الأعداء وتردعهم ، وعنصرا أساسيا من عناصر الجهاد في سبيل الله .

● فقد ورد « انفاق المال » وهو ما يعبر عن الاقتصاد في سورة الأنفال في نفس الآية التي توجه الى اعداد القوة : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون » (الأنفال – ٦٠) .

● كما اقترن الجهاد بالمال بالجهاد بالنفس : قال تعالى :

- « وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله » (التوبة – ٤١) .
- « ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله » (الأنفال – ٧٢) .. وفي الحديث أيضا قال عليه الصلاة والسلام :
- « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم والسنتكم » .
- وقوله حين سئل عن أفضل الناس : « مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله » .

- فالله تعالى فرض الجهاد بالمال مع الجهاد بالنفس بل وقدمه عليه في أكثر الآيات التي تحث على الجهاد ·· فقد يكون الجهاد بالمال أشد ضرورة من الجهاد بالنفس ، لأن الجهاد بالمال أمر لابد منه في تزويد الجيش بمطالبه وهو كذلك أمر لا حدود له اذا ما قورن بالجهاد بالنفس ، اذ أنه يمكن الاكتفاء من الرجال بالعدد الكفيل بالتغلب على العدو ، أما المال فلا حدود لطلبه ، لأن الحرب تحتاج الى مال غير محدود ، وبذلك يمكن للمسلم أن يشارك في الجهاد بماله اذا لم يجاهد بنفسه لعذر من الأعذار كالضعف أو المرض أو البعد عن مكان المعركة ·

- وبذلك يشكل الجهاد بالمال ركنا من أركان استراتيجية الردع الاسلامية ، لأنه يوقع الرهبة في قلب العدو من قوة المسلمين ، ذلك لأن المال هو عصب الحرب كما يقولون ، فاذا رأى العدو أنه سيواجه من المسلمين قوة حربية تساندها قوة اقتصادية متينة ، فسوف لا يستهين بالمسلمين ولا يعلق أمله على التغلب عليهم ·

التعبئة الاقتصادية فرض :

وعلى أساس أن التكليف الاسلامي بالجهاد يشمل الجهاد بالمال والنفس ، فان المؤمنين يستجيبون لنفير الجهاد بأموالهم وأنفسهم ، ولا يستأذنون فيما هو فرض وتكليف كما يفهم من قوله تعالى :

« لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، والله عليم بالمتقين ، انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون » (التوبة ٤٤ ـ ٤٥)
ويجيز الاسلام لولي الأمر أن يأخذ من أموال الناس وقت الحرب ما تدعو اليه الحاجة ·

التخطيط الاقتصادي :

وبمقتضى هذا الارتباط بين الاقتصاد والاستراتيجية العسكرية ، فان التنمية الاقتصادية في الأمة الاسلامية ـ وان كانت تخضع لقوانين خاصة بها ـ الا أنها تراعي في أهدافها وخططها الاعتبارات العسكرية · أما في حالة الحرب فان اقتصاد الأمة الاسلامية يتقرر كلية وفقا للمتطلبات العسكرية ، ولذلك يجب أن يكون البنيان الاقتصادي قادرا على التكيف مع متطلبات الحرب واحتياجاتها ·

الاكتفاء الذاتي :

ويوجه الاسلام الى تحقيق الاكتفاء الذاتي لأن اعتماد الأمة على غيرها يضعها في مهب تقلبات المصالح والأهواء ولا يحقق لها ميزة التفوق أو الاستقلال ، ولقد عنى الرسول صلى الله عليه وسلم بتحرير اقتصاديات المدينة من التبعية وجعلها خالصة للمسلمين لتحقيق الاستقلال والاكتفاء الذاتي ، ومن ذلك تحرير أرض المدينة من طغيان يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة ، ومنه أيضا أنه كانت بئر رومة ركية (أي ماؤها قليل) ليهودي يبيع المسلمين ماءها · فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : من يشتري بئر رومة فيجعلها للمسلمين ، يضرب بدلوه في دلائهم وله بها شرب في الجنة ؟ فأتى عثمان اليهودي فساومه بها فأبى أن يبيعها كلها ، فاشترى نصفها باثنى عشر الف درهم فجعله للمسلمين · فقال له عثمان : ان شئت جعلت على نصيبي قرنين (مكانين للسقيا) · فجعل المسلمون اذا كان يوم عثمان استقوا ليومين ، فلما رأى اليهودي ذلك قال : أفسدت علي ركيتي فاشتر النصف الآخر · فاشتراه منه بثمانية آلاف درهم ، وصارت كلها للمسلمين ·

الأساس الخامس : قوة الجبهة الداخلية وتامين سلامتها

كان أول ما عمد اليه الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة ، اقامة جبهة داخلية صلبة ، وذلك بجمع صفوف المسلمين وتوحيد جبهتهم وايجاد رابطة قوية بينهم ، وبتنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية لكافة سكان المدينة من المسلمين والمشركين واليهود :

١ ــ فقد عمد الى ربط المهاجرين بالأنصار (أهل المدينة الأصليين) فآخى بينهما بصلة الأخوة لتصبحا فئة واحدة مترابطة وملتحمة وليكون الجميع متعاونين على أسباب العيش ويدا واحدة تعمل لهدف واحد ، وكان لهذا الاخاء حكم اخاء الدم والنسب ، وظلت عقود الاخاء مقدمة على حقوق القرابة في توارث التركات الى غزوة بدر حيث استقر أمر المسلمين فالغى التوارث بعقد الأخوة ورجع الى ذوي الرحم ·

٢ ــ وعمد الى توحيد صف الأنصار أنفسهم حيث أنهم كانوا أوسا وخزرج ، وكانت بين الفئتين عداوات سابقة ، فأراد الرسول عليه السلام ــ وقد جمع بينهم الاسلام ــ أن يشكلوا قوة واحدة متضامنة وصفا واحدا ·

٣ ـ وعقد معاهدة بين المسلمين من جهة وبين اليهود والمشركين من أهل المدينة من جهة أخرى لتنظيم شئون الحياة لهم جميعا .

وبهذا حقق الرسول صلى الله عليه وسلم وحدة المدينة وتماسك الجبهة الداخلية ، وجعل أهلها جميعا على اختلاف دينهم يدا واحدة على أعدائهم ، كما وضع لمجتمع المدينة نظامها الاجتماعي والاقتصادي والعسكري .

تامين سلامة الجبهة الداخلية :

وحرص النبي صلى الله عليه وسلم على تأمين سلامة الجبهة الداخلية ومن ذلك مايلي :

١ ـ القضاء على محاولات تفتيت الجبهة الداخلية :

- قال عليه الصلاة والسلام : « من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه » (صحيح مسلم) .

- أخرج ابن اسحاق وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال : مر شاس بن قيس ـ وكان يهوديا ـ على نفر من الأوس والخزرج يتحدثون ، فغاظه ما رأى من تألفهم بعد العداوة . فأمر شابا من يهود أن يجلس بينهم فيذكرهم يوم بعاث ففعل ، فتنازعوا وتفاخروا حتى وثب رجلان : أوس بن قيظى من الأوس ، وجمار بن صخر من الخزرج فتقاولا (تبادلا التفاخر) وغضب الفريقان وتواثبوا للقتال . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء حتى وعظهم وأصلح بينهم فسمعوا وأطاعوا الله تعالى « يأيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب .. » (١٦)

٢ ـ بث العيون والأرصاد :

- كان للنبي صلى الله عليه وسلم عيون وأرصاد محلية في المدينة يطلعونه على كل صغيرة وكبيرة تضر بالمصلحة العامة للمسلمين في السلم والحرب على حد سواء ، فاختار مثلا حذيفة بن اليمان العبسي ليأتيه بأخبار المنافقين ونواياهم .

- كما كانت له صلوات الله وسلامه عليه عيون وأرصاد خارج المدينة : ففي مكة كان عمه العباس وبشير بن سفيان العنكي ، وفي القبائل العربية الأخرى في أنحاء شبه الجزيرة العربية كان (على سبيل

المثال) عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي في قبيلة هوازن ، وكذلك كان له عيون وأرصاد في بلاد فارس وبلاد الروم (بيزنطة) ·

- وقد كان لهؤلاء العيون والأرصاد دورهم في تأمين سلامة قاعدة الاسلام في المدينة فلم تؤخذ أبدا على غرة ، فقبل غزوة أحد مثلا أرسل العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم رسالة يخبره فيها عن وقت خروج قريش لقتاله وعن عدد جيشها ، فأسرع حامل الرسالة بايصالها الى النبي صلى الله عليه وسلم حتى انه قطع المسافة بين مكة والمدينة في ثلاثة أيام ، فلما قرأ أبي بن كعب الرسالة على النبي طلب ألا يبوح بمضمونها لأحد ·

وقبل غزوة الخندق التي عبأ فيها المشركون عشرة آلاف مقاتل عدا اليهود لمهاجمة المدينة كان النبي صلى الله عليه وسلم على علم بنوايا أعدائه (من خلال رجال مخابراته في مكة والقبائل العربية) وحفر المسلمون خندقا حول المدينة كان مفاجأة للمشركين لما رأوه حتى قالوا : « والله ان هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها » ، وهذه الواقعة لا تدل على يقظة رجال المخابرات المسلمين وكفاءتهم فحسب ، بل تدل على عجز مخابرات الأعداء عن الحصول على معلومات عن المسلمين ، وذلك على الرغم من أن حفر الخندق استغرق حوالي عشرين يوما كانت كافية جدا لرجال المخابرات لكشفه والاعلام عنه ·

وهذا ما عبر عنه خبير المخابرات والجاسوسية العالمي (لاديسلاس فارجو) بقوله (١٧) : « عندما قرر المكيون (قريش) أن يتخلصوا من محمد عليه الصلاة والسلام نهائيا ، عبأوا ضده قوة تتكون من عشرة آلاف مقاتل ، ولم ينزعج النبي ، لأنه كان قد ترك في مكة عملاء اكفاء ابلغوه بخطط أعدائه ، أما خصومه فلم يكن لهم عملاء عنده ، ولذلك فعندما وصل المكيون الى المدينة ، أذهلهم أن يجدوا خندقا وجدارا يحيطان بالمدينة تماما احاطة السوار بالمعصم » ·

٣ ـ تعلم لغة العدو :

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت بتعلم لغة اليهود ، وفي هذا يقول زيد : « أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم فتعلمت له كتاب اليهود بالسريانية وقال : « اني والله ما آمن يهود على كتابي » ثم يقول زيد : فوالله ما مر بي نصف شهر حتى تعلمته وجدت فيه ، فكنت اكتب له اليهم واقرأ له كتبهم اليه ··

وصدق من قال : « من عرف لغة قوم أمن شرهم » ٠

٤ ـ تطهير المدينة من اليهود :

سالم النبي صلى الله عليه وسلم يهود المدينة وعاهدهم على المناصرة والمساعدة ولهم الحرية في دينهم وفي جميع أحوالهم وأعمالهم ما وفوا بما عاهدوا ، فلما غدروا وخانوا العهد تخلص منهم جميعا ، وما أخذهم الا بما قدمت أيديهم ، فأجلى بني قينقاع وبني النضير وقضى على بني قريظة ، وترك أهل خيبر بعد انتصاره عليهم زراعا في أرضهم ولهم نصف ما يخرج منها حيث لم يصبح لهم من اليهود مدد ولا من الكفار عضد ٠

وبعد ، فتلك دراسة موجزة لقاعدة الاسلام في المدينة ولبعض الأسس الاستراتيجية التي قامت عليها ٠٠ وقد سجل التاريخ صلابة هذه القاعدة وقدرتها الفائقة على الصمود في مواجهة مختلف الأخطار والتحديات :

- فقد بلغ عدد العمليات العسكرية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم قرابة السبعين مابين غزوات وسرايا في خلال سبع سنوات ٠

- وقد حاربت هذه القاعدة أكثر من عدو في أكثر من جبهة ، فواجهت المشركين واليهود والروم ، وتعرضت للغزو المباشر ، وتعرضت للغدر من داخلها بينما كان أبناؤها يحاربون العدو خارجها حتى (زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر) ٠

- واتخذ الله من زهرة أبنائها شهداء سالت دماؤهم في حروب سافرة ، وفي مؤامرات حيكت لهم في الظلام ٠

- وحارب المسلمون أغلب معاركهم عدوا أكثر منهم عددا وعدة ، وحاربوا أحيانا وهم جرحى ومرضى ، ولكنهم كانوا كما وصفهم ربهم :

« ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع أجر المحسنين ٠ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » (١٢٠ ـ ١٢١) ٠

وهذه الآية ترينا ما كان يمر بقاعدة الاسلام من ألوان الجهد والألم : الظمأ والتعب والجوع والحركة التي تغيظ الكفار ، والبذل ومايتنزعونه من عدوهم ، ثم رد الأمر لله تعالى بعد بذل الجهد .

لكن مع كل ذلك بقيت قاعدة الاسلام وطيدة صلبة ، حتى تمت كلمة ربك في شبه الجزيرة كلها ، وأمن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل عادية عليها ، وأقبل سائر أهلها وفودا عليه يقدمون الطاعة ، ويعلنون لله الاسلام ..

ان لدى العرب والمسلمين القدرة على قيادة النهضة الحضارية الشاملة ، ما استمسكوا بدينهم ، وأقاموا وحدتهم ، وساروا على هدي دينهم في البحث والتطوير ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، وعملوا لمستقبلهم بالايمان والعلم والصبر والمصابرة « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز ، الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

الهوامش

١ ـ هم : علي والزبير وطلحة وابو دجانة والحارث بن الصمة والحباب بن المنذر وعاصم بن ثابت وسهل بن حنيف .

٢ ـ ما من شك في أن السعي على الرزق مطلوب ، وان العمل الجاد ، والكادح انما هو من سمات الاسلام ، كل ذلك حق ، واذا كان الرزق بيد الله تعالى ، واذا كان العمل مطلوبا ، فان ما ينهى عنه الاسلام انما هو هذه الصورة البشعة القلقة التي تحاول اقتناص المال من السبل غير المشروعة او التي ترى أن عبدا من عباد الله بيده الرزق اعطاء ومنعا وبيده الرزق زيادة ونقصا او اخذا وتركا ، وقد حرر الاسلام بموقفه هذا المجتمع الاسلامي من أن يكون هم الرزق سببا في ضعفه او ذلته .

٣ ـ المعنى أن الصحابة بداوا قلة ضعافا ثم انتهوا الى كثرة قوية مباركة .

٤ ـ أسباب النزول للسيوطي . وفيه ايضا : واخرج البخاري عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : اتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله اصابني الجهد فارسل الى نسائه فلم يجد عندهن شيئا . فقال : الا رجل يضيفه هذه الليلة يرحمه الله ؟ فقام رجل من الانصار فقال : انا يارسول الله . فذهب الى اهله فقال لامراته : ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تدخريه شيئا . قالت والله ماعندي الا قوت الصبية . قال : فاذا اراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فاطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة . ففعلت . ثم غدا الرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لقد عجب الله او ضحك الله من فلان وفلانة . فانزل الله تعالى « ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة » وقد ذكر ابن المنذر ان الرجل الذي اضاف هو ثابت بن قيس بن شماس .

واخرج الواحدي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « اهدى رجل من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم راس شاة . فقال : ان اخي فلانا وعياله احوج الى هذا منا . فبعث اليه ، فلم يزل يبعث به واحد الى آخر حتى تداولها اهل سبعة أبيات حتى رجعت الى اولئك . فنزلت « ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة .. الآية » (ولا مانع من تعدد السبب) .

٥ ـ أسباب النزول للسيوطي .
٦ ـ أسباب النزول للسيوطي .
٧ ـ ابن كثير جـ٤ ص ٣٢٩ .
٧ ـ ابن كثير جـ ٤ ص ٣٢٩ .

٨ ـ انظر كتابنا (المدخل الى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الاسلامية) للاطلاع على تحليل نظريات الاسلام في الردع ـ الحرب النفسية ـ الاستعداد القتالي ـ المخابرات ـ الامن ومقاومة الجاسوسية ـ توجيهات الاسلام في القتال ـ بناء المقاتل ـ العلم والمنهج العلمي والتطور ـ التدريب على القتال ـ الانضباط والتقاليد العسكرية ـ الروح المعنوية وارادة القتال ـ روح الفريق ـ بناء القادة ـ الشورى ـ الكيان العسكري للأمة ـ اعداد الشعب للمعركة ـ اقتصاديات الحرب ـ رعاية ضحايا الحرب ـ الحرب العادلة .. الخ .

٩ ـ يعرف العلم العسكري « العقيدة العسكرية »
Military Doctrine
بانها « السياسة المرسومة التي تعبر عن وجهات النظر الرسمية للدولة في شئون الحرب من حيث أهدافها وطرق اعداد البلاد والقوات المسلحة لها وأساليب ادارتها » .

١٠ ـ من المدهش أن « نظرية الردع » التي هي أول نظرية حربية في الاسلام منذ أربعة عشر قرنا ، هي أحدث نظريات القرن العشرين العسكرية ، وأن الفكر العسكري العالمي لم يصل اليها الا بعد معاناة طويلة وقاسية في حروب طاحنة اكتوى العالم بنارها . وفي هذا يقول الجنرال اندريه بوفر : « ان رجل القرن العشرين الذي تلاحقه مآسي الحربين العالميتين ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ، ١٩٣٩ ، ١٩٤٥ هذا الرجل المسلح بكل وسائل العلم الحديث ، ربما وجد أخيرا الوسيلة لمنع وقوع مثل هذه المآسي وهي استراتيجية الردع » !! .

١١ ـ المدهش ان هذا الوضع (الفارس الممسك بعنان فرسه) الذي قرره الاسلام منذ أربعة عشر قرنا يشبه الوضع الذي تكون عليه الطائرات المقاتلة الاعتراضية ـ في عصرنا ـ التي تكون مهمتها الاستعداد للانطلاق لملاقاة طائرات العدو المغيرة ، اذ تكون الطائرة رابضة على ممر الطيران ومجهزة تماما بالوقود والسلاح والذخيرة والطيار بداخلها بكامل معداته وهو « ممسك » بعصا القيادة وفوق أذنيه سماعات اللاسلكي حتى اذا جاءته الاشارة « طار » على الفور .

١٢ ـ طبقات ابن سعد جـ١ ص ٣١٢ .

١٣ ـ جرش بلدة في الأردن حاليا . والعرادات والمنجنيق والدبابات من آلات الحصار واقتحام الأسوار .

١٤ ـ انظر ص ٢٠١ ، ٢١١ من (موسوعة التاريخ العسكري) .
The Encyclopedia of Military History (By : R. Ernest Dupuy & Trevor Dupuy).

١٥ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر .
١٦ ـ أسباب النزول للسيوطي .
١٧ ـ الجاسوسية بين الوقاية والعلاج ـ احمد هاني .

مراجع البحث

١ ـ القرآن الكريم .
٢ ـ أسباب النزول للسيوطي .
٣ ـ كتاب المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الاسلامية (بحوث في الفقه والتربية والمجتمع) .

٤ ــ حيــاة محمــد ــ د· محمد حسين هيــكل ·
٥ ــ عبقرية محمــد ــ عباس محمود العقــاد ·
٦ ــ مدخل الى الاستراتيجية العسكرية ــ الجنرال اندريه بوفر (ترجمة اكرم ديري) ·
٧ ــ الردع والاستراتيجية ــ الجنرال اندريه بوفر (ترجمة أكرم ديري) ·
٨ ــ الجاسوسية بين الوقاية والعلاج ــ أحمد هاني ·
٩ ــ الفن الحربي في صدر الاسلام ــ عبد الرءوف عون ·
١٠ــ المدخل الى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الاسلامية ــ للكاتب ·
١١ــ العسكرية الاسلامية ونظريات العصر ــ للكاتب ·

12. The Encyclopedia of Military History (R. Ernest Dupuy and Trevor N. Dupuy).